

## على خطى أسلافنا - توطيد الإحساس بالمكان

ديفيد جنز

الارتباط: الإرتباط: المدير التنفيذي، ليبرا - david.jenns@libra-uae.com

منذ أول وصولي للإمارات العربية المتحدة للعمل كمدرس في كليات التقنية العليا في مدينة العين في عام ١٩٩٦، أصبحت مفتونا بالصحراء وعالم البدو أولئك الرُحَّل الذين جابوا بحار الرمل الشاسعة على متن الجمال قبل وصول السيارات. لكن، ومع اكتشاف النفط في المنطقة وابتداء الحداثة، تراجع الكثير من التقاليد وأنشطة التراث لدى شباب اليوم الذين جذبهم خضم النمو المتصاعد في بلد غني بالنفط، وابتوا جد تواقين لمعانقة قيم القرن الواحد والعشرين. إن الكثيرين من شباب وشابات دول التعاون الخليجي هم في خطر فقدان روابطهم مع بيئتهم الطبيعية وتقاليدهم كركوب الجمال مثلاً.

تتمتع الإمارات العربية المتحدة بتضاريس طبيعية متنوعة ممتدة لتشمل شواطئ ذات خلجان تماثل الفيوردات، وجبال مذهلة، وسهول سافانا عشبية، وبحار رمال عظيمة هي العنوان الرديف للمنطقة. كانت هذه المناطق سابقاً تعج بالحيوانات الضارية بما فيها الذئاب والنمور العربية، وبالأرانب البرية والغزلان والحيارى والنسور، إلا أن معدل التنمية كان من الشمول لدرجة ابتلاع وحش التطور لمناطق شاسعة. يعيش الكثير من الشباب الآن في المدن الأنيقة وكأنهم في شرنقة تعزلهم عن عالم الطبيعة الذي يقع على بعد بضعة كيلومترات من الزحف الحضري.

أسست أثناء عملي في كلية التقنية العليا في الشارقة مبادرة لإنشاء برنامج لتعزيز الهوية الوطنية واستعادة الصلة مع التراث المحلي وتعريف المواطنين الشباب على التنوع والجمال الطبيعي الرائع للإمارات، وحصلت في سبتمبر على الموافقة للبدء في التخطيط لقيادة قافلة على ظهر الجمال عبر الدولة. كانت خطة الرحلة، التي حملت اسماً مناسباً هو «على خطى أسلافنا»، هي تتبع خط قوافل الجمال التقليدية من عريشة قديمة تقع أحضان خلجان جبال الحجر إلى الشارقة وهي إحدى أقدم مستوطنات الإمارات الشمالية.

وهكذا، ومع بزوغ شمس السبت ٢٢ نوفمبر، وبصحبة تسعة طلاب واثني عشر جملاً، ومرتدين اللباس التقليدي من كندورة وغترة، غادرنا دبا الحصن منطلقين في رحلتنا التاريخية. كنا قد علمنا قبل البدء في رحلتنا، وعلى نحو لافت للنظر، أن واحداً فقط من الطلاب كان قد سبق له ركوب الجمال، لكننا أصبحنا جميعاً في نهاية اليوم الأول على دراية بالركوب وتلقينا دروساً في الملاحة ومبادئ إقامة المخيمات. إن من الأمور الهامة في قوافل الجمال السير في طابور أحادي قدر الإمكان، إذ أن الجمال وبمجرد أن تجد جملاً أخرى تجاورها تبدأ في التسابق بشكل يبدأ هرولة ثم ينتهي بالعدو بأقصى سرعة والفوضى. لقد تعلمنا هذا الدرس باكراً في اليوم الأول، وكنا جد مصممين على عدم التكرار الطوعي لهذا الأمر مرة أخرى. سرنا بمحاذاة سهل عريض لفيضان نهر متجهين إلى جبال الحجر الرهيبة، وكانت وجبة غذائنا شعرية بالبيض طهيت في الظلال الوارفة لشجرة سنط السمر (أكاسيا)، ورغم أننا كنا فيما يعتبر فصل الشتاء، إلا أن الحرارة كانت تصل إلى ٢٥ درجة مئوية في ذروة الحر أثناء النهار.

وصلنا بعد ٣٥ كيلومتراً وسبعة ساعات مضنية من الركوب إلى موقع مخيمنا الأول على هضبة في جبال الحجر تطل على السهول الواقعة على بعد آلاف الأقدام أسفلنا، باشرنا بعقل الجمال وضرب المخيم وإعداد الطعام، ثم ناقشنا حول المجلس أثناء وجبة العشاء إنجازاتنا وما تعلمناه من هذه التجربة. كانت حياتنا تدور كحياة الأجداد حول



صورة ٢: المؤلف يناقش رحلة اليوم التالي (© Brad Moody)

إيقاع اليوم؛ فض المخيم قبل شروق الشمس والارتحال عبر الصحراء طيلة اليوم ثم التخييم عند الغروب. وصلنا في اليوم السادس إلى المدينة الجامعية وهي بغيتنا النهائية، لتلقى موكباً من آلاف الطلاب من مختلف الكليات بانتظارنا. كان الطلاب قد واكبوا تقدمنا عبر إشارات لأجهزة نظام تحديد المواقع العالمي GPS حملت إلى الموقع الخاص بالرحلة على شبكة الإنترنت، ومن خلال المدونات اليومية للطلاب التي كانت ترسل من جهاز مودم متصل بالأقمار الصناعية حمله أحد الجمال. قطعت القافلة مسافة ١٦٠ من أكثر التضاريس تحدياً في العالم، ولم نترك خلفنا سوى آثار خطى كتلك التي خلفها أسلافنا.

أثارت البرامج المشابهة حواراً داخل المجتمع المحلي حول أهمية الحفاظ على الروابط مع الماضي. اكتسب الطلاب المشاركين الكثير من تجربة المشاق التي كانت تتحملها عائلاتهم، كما أنها منحهم تبصراً في تنوع وجمال المنطقة العربية.

عمل ديفيد جنز لقرابة ١٢ عاماً في تطوير وإدارة برامج التدريب الجسدي في الإمارات العربية المتحدة، وانتخب في عام ٢٠٠٤ زميلاً للجمعية الجغرافية الملكية، لجهوده في تطوير برنامج التدريب في البرية والقيادة في أحضان الطبيعة مع الطلاب المواطنين في إمارة أبوظبي. يشغل ديفيد حالياً منصب المدير التنفيذي لمؤسسة ليبرا ومدير التعليم في مؤسسة تعليم المغامرة المطلقة.



صورة ٢: المخيم في تلال الرمال المرتفعة (© Brad Moody)



صورة ١: الغروب في سهول السفانا (© Brad Moody)